

مقدمة

شعب تحرر .. وكتاب تحرر !

اليوم وقد شامت عناية الله أن يتحرر ملايين المصريين من إمار
العبودية ، وقد خطمت قسبان السجون الحديدية وغير الحديدية ، لينطلق
المجاهدون الصابرون إلى عالم الحرية .. أتيح لهذا الكتاب السجين أن
يتحرر وينطلق إلى أيدي جماهير الشعب المصري ، في وقت هي أحوج
ما تكون فيه إلى ما يوقفها على حقائق الأشياء ، ويكشف لها عن أخطاء
الأمس ، ويوجهها في كفاحها الشعبي الوطني وجهة صحيحة نافعة فمصر
اليوم أحوج منها في أي وقت مضى إلى ما يعينها على الخروج سريعاً من
مرحلة الانحلال ، التي أشرفت بحمد الله على الزوال ، ولم يكن هناك مفر
من المرور بها كمرحلة انتقال بين طور فاشل من أطوار حركتها الوطنية ،
وبين طور جديد وضع الجيش الباسل أساسه المكين بحركته المباركة التي
فرضت إرادة الشعب ، ودعمت سلطانه ، وردت إليه عزته وحرية .

وإذا كانت فترات الانحلال كالحمى ، لا بد أن تأخذ دورها ، وأن
يستغرق البراء منها وقتاً ، فنحن اليوم وقد ضرب الجيش ضربته السديدة
المفاجئة ، إنما نواجه مسئوليات جساما نسأل الله العلي القدير أن يعاوننا
على النهوض بها ، في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخنا الحديث . وإنه
مجهود ضخم ولا شك أن نحافظ على ثمار هذا الانقلاب الذي قامت به نخبة
مؤمنة من أبناء مصر ، قوضوا صرح الطغيان ، وبددوا سحب اليأس ،
وأعادوا إلى الشعب إيمانه بنفسه وثقته بمستقبله .

ليس بناء هذا المستقبل بالأمر اليسير ، فعملية البناء ونحن لم نبرء من
فوضى الانحلال تماما ، وقد امتد الفساد إلى كل ناحية من نواحي حياتنا ،
إنما تتطلب جهوداً شاقة مضنية ، يجب أن تبدأ بمرحلة تصفية وتطهير تعجل
بزوال مرحلة الانحلال وتقضى على آثاره ومخلفاته قضاء مبرما .

لقد درست نفسية الانحلال طوال الأعوام الماضية ، فلم أعتقد يوما في
سهولة القضاء على فوضى الانحلال وحمى نشاطه المفتعلة . بعد أن عمت
تلك الفوضى ، وتضاعفت تلك الحمى وتذبذبت فكرة الإصلاح وتأرجحت
بين التيارات الانحلالية المهوشة المتباينة . . تلك التيارات الفكرية التي
تتجاذب الشعوب عادة في مراحل انتقالها من طور إلى آخر من أطوار
حياتها . ولكنى أن أرى فكرة الإصلاح تنحرف وسط هذه التيارات
مع عبث الوصوليين والحايمين ومحاولاتهم الضارة أو السابقة لأوانها ، وقد
حجب اتجاهها السليم طغام الانحلال الفكرية . فكان أخوف ما شئت
أن تتمكن العناصر الوصولية والانتهازية متكررة في ثياب الجيل الجديد
من ركوب الحركة المصرية في طورها الجديد ، كما ركبتها وأساءت توجيهها
في أكثر أطوارها السابقة . ولم يكن هذا بالأمر البعيد الاحتمال . وقد
ضاعفت حكومات الجيل القديم من فوضى الانحلال ، وزادتها حدة
واضطرابا بإمعانها في سياسة السكبت المطلق التي أفسحت مجال الظهور
للرخيصة لأدعياء الإصلاح وطلاب البطولة الكاذبة . فما كان أسرع طغيان
الأفكار السخيفة المهوشة على الأفكار السليمة الطيبة ، فتبليت الأفكار
وتوترت الأعصاب وعم القلق . وتعددت حماقات المتلهفين ، ومحاولات
الانتهازيين واختلطت بممارات الأحزاب القديمة البالية . مما لبد جو
السياسة المصرية بالغيوم ، فولد اليأس في نفوس الضعفاء وأثار في نفوس
الأقوياء القلق !

رأيت كل هذا وصادفت بعض العناصر الغربية تحاول استغلال تلك الفترة وما يتخللها من تلهف وقلق ، بتسخير بعض أدعياء الإصلاح في تسميم الأفكار ، وإضعاف المقاومة الشعبية ، وفي محاولة إساءة توجيه الانقلاب المنتظر ، على نحو يهدد كيان البلاد بالخطر ، مالم يفتن الواعون من أبناء الشعب إلى حقيقة تلك العناصر ، فبادروا إلى رد الإيمان إلى من شككهم أو عررت بهم ، وقابلوا دعايتها الحبيثة بسيل متدفق من الأفكار السليمة الطيبة .

رأيت كل هذا فهالني الأمر . وأردت أن أعمل شيئاً لمواجهة هذه الحالة . ففكرت أوائل عام ١٩٤٢ في أن أخرج للناس جانباً من هذا الكتاب باسم « تيارات الانحلال وتيارات الحرب في مصر » أوضح لهم فيه خفايا فترة الانحلال من الناحية النفسية ، وأحلل اتجاهات الإصلاح ومحاولاته الارتجالية ممثلة في جماعات الانحلال المتعددة ، مبرزاً ما علق بها من فساد ، وما شابها من خطأ ، منها إلى ما يصيبنا من ضرر لو لم يفسح مجال الظهور ، لثورة العسكرية المحبوسة في الصدور ، وتوجه الوجهة التي تتفق وصالح البلاد ، وتحقق للشعب ما يرجوه من إصلاح شامل يرد إليه إيمانه وحرية وكرامته .

والحق أني ترددت كثيراً بين نشر هذا الكتاب وإرجاء نشره ، وقضيت في اختصاره وتخفيفه أكثر مما قضيت في تحضيره وكتابته ، محاولاً قدر الطاقة أن أوفق بين ما يسمح بأن ينشر وما يجب أن ينشر . وكانت تلك لعمري مهمة دقيقة ، وعلى النفس ثقيلة ! فما أشد ما يؤلم الكاتب أن يتر مكرها بعض ما كتب ، لكي يفلت من مقص الرقيب ، فيحافظ بذلك على تسلسل البحث ووحدته .

كانت الرقابة على النشر في ذلك الوقت شديدة صارمة وكان مقصر الرقيب مختلاً أهوجاً ، يقص ذات اليمين وذات الشمال . لا يترك فقرة إلا وينتزع منها أسطراً ، ولا يكاد يمر بسطر إلا وينتزع بعض الكلمات منه . وقد رأيت ما فعل بأحد فصول هذا الكتاب يوم دفعت به لجلس النبض إلى إحدى الصحف . فقررت بعد تردد طويل إرجاء نشره إلى حين ، وقد تركت بعض نسخ منه تتداول بالآلة الكاتبة ، وقعت إحداها يوم اعتقالى أول أغسطس سنة ١٩٤٢ في يد رجال المخابرات والأمن . وطلبت ردها إلى أكثر من مرة ، لأعيد كتابة هذا الكتاب بتوسع وصراحة ، فلم يرد على طلبى بقبول أو برفض ، مما اضطرني إلى تهريب نسخة أخرى إلى معتقل النيا ، أرجع إليها كلما خلوت إلى نفسى ، وأعيد كتابة بعض فصولها في حذر !

فلا عجب إذا كنت بمثل هذا الكتاب المجاهد أعتز . لاسيما وأنى أنظر إليه ، وإن لم أفرغه في قالب مذكرات خاصة ، بجزء من حياتى هو الأصعب والأهم . . . استعدت في ذهنى بكتابته أعواماً مضت حافلة بالذكريات ، مثيرة لشقى للشاعر ، وأفرغت فيه من الآمال والأهداف ما طال احتباسه في الصدر .

ايس هذا الكتاب بمجموعة من الآراء والنظريات ، وما كنت لأرجع في وضعه إلى عشرات المراجع والكتب . إنما هو خلاصة تجارب قاسية ، ونتاج رحلة طويلة شاقة في دنيا الانحلال ، الذى تعرض له الشعوب تعرض الأفراد للأمراض ، والجماعات للآوبئة . فما من أمة إلا وقد مرت في تاريخها بفترة انحلال أو أكثر ، جاءت عقب الانهاس في الترف ، أو الفساد الاجتماعى والخلقى ، أو سوء التوجيه القومى ، أو الهزيمة الماحقة

في حرب ، وما إلى ذلك من عوامل تدهور الشعوب وانحلالها .

قد تطول فترات الانحلال أو تقصر ، تبعاً لمبلغ شدة العوامل التي سببتها ، وتبعاً لتفاوت الشعوب في حيويتها واحتمالها ، وإذا كان للشعب المصري أن يفخر ، فليفخر بأنه مر بالكثير من تلك الفترات ، واستطاع أن يبرأ باحتماله العظيم من قروح الانحلال أكثر من مرة ، وأن ينهض بحيويته النادرة من عثرته كل مرة ! فبينما قضى الانحلال على الكثير من الشعوب ، حتى لقد أزالها من الوجود تماماً ، نرى الشعب المصري ، أقدم شعوب الأرض وأعرقها مدنية ، قد احتفظ إلى اليوم بوجوده وكيانه وحيويته ، ولا عجب فالمصري من معدن قوى سليم ، صهرته القرون وعجمته الحوادث ، وقد عاش بمدنيته العظيمة ، أولى المدنات جميعاً ، نيفاً وأربعين قرناً ، ثم تعاقب عليه الغزاة فكسر شوكتهم ، ونجا من أخطار الانحلال الذي يسيطر على نفوس الشعوب المغلوبة عادة ، وظل محتفظاً بكيانه وطابعه الخاص وقوميته .

هذا هو الشعب العظيم الذي هيا المدنية أن تظهر لأول مرة على وجه الأرض . هذا هو الشعب الذي وصمه بالأمس ضعاف النفوس بأنه شعب خليط ضربت عليه الدلة والسكنة ، ولم يكن مثل ذلك الشعور الانحلالى الحقير ، إلا عرضاً من أعراض الانحلال ، حيث يجثو شعور اليأس على شعور الأمل ، وقد غاب عن أمثال هؤلاء المستضعفين الشواذ أن الشعوب لا تذلل إلا إذا ذل أفرادها ، وأنهم إنما يزبحون ذلتهم على الشعب ، ويرمونه بنقائصهم وشدوذهم . فها هم إلا شواذ ضعاف النفوس ، ما كادوا يتجرعون أول جرعة من مر الانحلال المؤقت حتى فقدوا كل إيمان وعزة وثقة ، ولم يدركوا بعقولهم المغلقة أن فترة الانحلال بطبيعتها عارضة مؤقتة

وفي استطاعة الشعب أن يخرج منها سالماً إلى طور رقي واثعاش جديد ،
يستطيع أن يخلقه خلقاً جديداً ويوجهه الوجهة النافعة !

وأنا إذ أبدأ كتابي هذا بالدراسة النفسية لفترة الركود والانحلال
هذه ، إنما أرمى إلى تصويرها لأمثال هؤلاء المستضعفين الشواذ ، والجماعة
الفاترين والحائرين من جهة أخرى ، كفترة انحلال عارض ، لا بد من
توسطها كمرحلة انتقال بين طور قومي أشرف على الزوال ، وبين طور
جديد واضح الأهداف ، قوى الأساس ، إيجابى الوسائل ، ولهذا لم يكن
هناك مفر من أن يعمها شعور اليأس طالما أنها تبدأ بانتهار زعامة أخطأت
توجيه الحركة القومية وانتهت جهودها بالفشل .

هذا الفشل الذى يصب الفتور أو اليأس فى نفوس الغالبية الغالبة من
الجماعة ، يلقى من ناحية أخرى بهؤلاء الذين يحتفظون بحيويتهم وإيمانهم
بالمستقبل فى سلسلة من المحاولات الحائرة ، التى تكثر وتختلط بالمحاولات
الطائشة والفرضة لفريق الوصولين والنفعيين وأصحاب المطامع ، الذين
كانوا يتمسحون بأعتاب الزعامة القديمة وهى فى أوج سلطانها ، والذين
ما كانوا ليظهروا فى الميدان لولا زوال هيبتها وبروز معالم انهيارها . من
هنا كانت فوضى الانحلال الفكرية التى تعم وتشتد كلما ازدادت فكرة
الإصلاح تذبذباً بين تلك المحاولات المتباينة ، والتى لن تنتهى إلا باستقرار
فكرة الإصلاح فى اتجاه صحيح معين ، بظهور طلائع الزعامة الجديدة ،
التي تكتسح محاولات الانحلال فى طريقها ، بانخراط الحائرين فى صفوفها ،
وبتخلي الفرصيين وأصحاب المطامع عن محاولاتهم السابقة لأوانها ليحجزوا
لأنفسهم مكاناً فى الزعامة الجديدة متى لاحت فى الأفق القريب أو البعيد
بوادى انتصارها الأولى .

تلك الزعامة الجديدة لم تكن لتنزل إلى الميدان إلا متأخرة ولا مفر من أن يسبق ظهورها وقت تعم فيه الفوضى الفكرية ، ويحجب أدياء الإصلاح دعاة الإصلاح الحق ، وما كان هذا التأخير ليضعف من إيمان رجالها الأوائل . فهم ليسوا بتجار سياسة حتى يفضلوا كسباً عاجلاً ، أو ليطعموا في شهرة وفنية زائفة . وعندهم من الثقة بالنفس ، والاعتداد بالمبدأ ، والإيمان بحركتهم الجديدة وبانتصارها المؤكد مهما طال النضال وأيا كانت الصعاب ما يجعلهم لا يتلهفون ولا يابهون بأن تبخس أقدارهم بعض الوقت . أو يفزعون من ترفع وصولي عليهم ، وصل بوصاليتهم إلى مركز يظنه أعلى ، وهو في الواقع أدنى وأحق وأخس !

ومما أطال فترة الانحلال أن بدت كتلة الشعب غير مكترثة بما يحدث وقد سلبها الجهل المطبق والفقر المدقع كل إيمان ، ووعي قومي ، وثقة بالمستقبل ، وعزة نفس وكرامة . والناس عموماً وقد تفتش فيهم مرض « التوكل » أو « التواكل » بمعنى الاستسلام للظروف والإيمان الأعمى بالقضاء والقدر ، أصبحوا يتمسكون بما هو كائن ، ولا يفكرون في خير ما يجب أن يكون . يبعدون عن كل شيء ويدعون أنهم عاجزون عنه . لكن الدلة قد ضربت عليهم ، ولكن المظالم الاجتماعية تبدو لهم نظماً طبيعية راسخة فلا عجب إذا قبلوا كل فكرة إصلاحية جديدة بعدم الاكتراث ، وبالشك في جديتها ونجاحها . ولا عجب إذا نفرتهم محاولات الانحلال المرتجلة التافهة في كل محاولة جديدة للعمل . . . لا عجب إذا عكف المصلحون المخلصون إزاء كل هذا على دراسة الميدان قبل النزول ، وترددوا قليلاً في الجهر بأرائهم خشية أن يساء فهمها ، أو أن ترسب إلى القاع تحت ريم الانحلال الفكري ، أو أن يعلق بها !

أما أدعياء الإصلاح فما أيسر ما يندفعون إلى الظهور ، وقد وجدوا في سياسة الكبت المطلق السبيل لإشباع بطولهم الرخصية . . يتندرون بالاضطهاد ، ويتعجلون الحوادث ، بانين بأحلامهم الصبيانية على الرمال قصورا من ورق ! وقد أغراهم على الظهور وأشعل أطباعهم الشخصية ركود الأحزاب القديمة ، وفتور أنصارها ، وزهد الناس في تتبع أخبارها وتبرمهم بخلافاتها ومهاتراتها ، حق لقد بدا كرسى الزعامة شاغرا في الجو لكل حالم ، يتطلع الناس إلى انقلاب جديد ، لا يدرون ماهو ، ولا يريدون أن يخلقوه بأيديهم . . . وإنما يتوكلون على الله ، وينتظرون أن يهبط هذا الانقلاب عليهم من السماء لإنقاذهم ! حق أنك لم تكن لتحدث مصريا مثقفا أو واعيا إلا ويبشرك بوقوع هذا الانقلاب المنتظر . أما كيف يكون هذا الانقلاب ، ومتى يظهر ، وأين هي الاتجاهات الفكرية التي نستطيع الاستدلال منها على نوعه وغايته ، فهذا ما لم يفكر فيه دعاة الإصلاح الموعود ، وما لم يكدهم به أحد .

هذا الفراغ في تفكير الناس ، ووقوفهم موقف الانتظار والأمنية ، ضاعف حمى الانحلال وأطال مدتها ، وأغرى كل محب للظهور على أن يؤجر دارا ويعلق لوحة ، ثم يحلم أنه يتزعم حركة ! ومن هنا كثرت جماعات الانحلال وتعددت . وأساء المترعمون المتنافسون إلى فكرة الإصلاح وأفسدوا . وقد كاد ترك أمر هذا الانقلاب هكذا للقضاء والقدر يؤدي إلى إفلات زمامه من يدينا ، واتجاهه وجهات ضارة غريبة لا يزيدنا ، ولا تتفق وظروفنا الخاصة ، إن لم تضعف مقاومتنا الشعبية وتهدد كيانتنا .

لهذا كان من الضروري أن نبحث أمر هذا الانقلاب على ضوء

تجارب الماضى ، وبمراعاة ظروفنا الحاضرة ، وبدون أى إغفال للتيارات الفكرية والاتجاهات المستقبلية فى مصر والخارج . ونحن إذ نفعل هذا نستطيع الهيمنة التامة على الانقلاب وتوجيه الوجهة المناسبة التى نريدها ، وهذا ما سنحاوله فى الفصول التالية ، بعرضنا السريع للحركة المصرية فى أطوارها المختلفة ، مع تتبع اتجاهاتها المستقبلية . وسنكون فى عرضنا هذا صريحين إلى أبعد حدود الصراحة . فبالصراحة وحدها نستطيع أن نهى أصحاب الخوافز إلى الطريق الصحيح للتفكير فى الإصلاح ، وأن نخلص الحركة الجديدة من عناصر الانتكاس والضعف ونظهر صفوفها من الوصوليين والانتهازيين ، ونوجهها الوجهة السليمة التى نراها نافعة .